الدّين القويم

نظر تمهيدي اجمالي في اركانه

للاب شارل ابيلا اليسوعي

١ الحدث الديني

قال المسيو ريناك في مقدمة كتاب له في تاريخ الاديان (١ ما تعريبهُ : « اي زمان واي مكان اعتبرتَ فيهما الانسان أُلفيتهُ حيواناً دَيناً فانَّ ما عُرف عند الوَضعيين بالعاطفة الدينيَّة هو اعرق الصفات المتأصلة في الجوهر البشريّ ولم يبقَ احدٌ في يومنا هذا يذهب مذهب جبرائيل دي مُرتيليه (de Mortillet) وهنلاك (Hovelacque) القائلين بجهل الانسان الديانة في الطور الجيولوجيّ الرابع » اه

هذا ما أعلن به المسيو ريناك مع ما هو عليه من الآراء المتطرّفة في تاريخ الاديان ومن الميل الشديد عن كل ما يؤيد العقائد النصرانيّة . ومثلهُ رأياً المسيو غويو (Guyau) وهو من الوضعيين قال في الفصل الثاني من كتابه المعنون « لادينيَّة المستقبل » (l'Irréligion de l'avenir) ما تعريبهُ :

« من الامور المقرّرة لدى المعاصرين من اهل النقد بعد ما اثبتهُ رُسكوف (Roskoff) والمسيو ريفيل (Réville) والمسيو جيرار دي ريال (Gérard de Rialle) في مؤلفهم انهُ لا توجد اليوم بقعة في الارض لا يدين سكّانها بديانة او خرافة . . . »

« وايضاً الدليل على وجود الدين حتى في الاجيال السابقة لتاريخ ادلَّةٌ صريحة راهنة في الآثار الحجريَّة العاديَّة . ومنها المقابر والكروميلكات والأنصاب والمقابر والتلم وزد عليها الحَلَقات الصخريَّة وهي حطامٌ من الطلم فُصلت عمداً عن الجمجمة ربَّما كانت مثقوبة قصد التدلية . فان عهد التديّن في البشر يرتقي الى زمن الحجر الصقيل . » اه

وعلى هذا الرأي قد اجمع اليوم ايمَّة تاريخ الاديان ايًّا كان مذهبهم (٢

(١ اسمهُ S. REINACH: Cultes, Mythes et Religions, *Paris, 1905*.

(٢ راجع ABBE DE BROGLIE: Problèmes et Conclusions de l'Histoire des Religions, *Paris, Pulois, Crettè*.- A. BROS: La Religion des peuples non civilisés, *Paris, Lelbielleux*.- Mgr. A. LE ROY: La Religion des Primitifs, *Paris, Beauchesne*.

فاذا ما تقصينا شعوب الارض في سالف الازمان او في وقتنا الحاضر وتصفّحنا تواريخها واطّلعنا على تقاليدها ونبّهنا عن احوالها واطوارها وجدناها على اختلافها في المزاعم والعقائد والرسوم والعوائد تتّفق في امور جوهرية ثلاثة (١ :

(اولًا) ليس من شعب الّا ينسب فيه الخلف الى السلف بعض تعاليم اوّلية لا بدّ للجميع ان يعتقدوا ولو بما جاء منها صريحًا لا يختلف عليه لدى الأئمة. واخصّ هذه التعاليم يفصح عن العالم عمومًا وعن جنس الانسان خصوصًا او اقلّهُ عن فئةٍ منهُ تجمعت في قبيلة او عشيرة. ويحور الدين جوهريًا اصل الكلّ ومآلهُ الى بيان من خلقَ الدنيا والبشر وكيف والى ما ينتهي امرُنا بعد الموت

(ثانيًا) وثمّة ايضًا رسومٌ وسنن ذهبوا انّ واضعها او المنذر بوضعها انما هو ربٌّ تفرّد في ذاتهِ او تعدّد فاق على الانسان وتسامى كيانًا ومنزلةً فقيّد ارادتهُ وعملهُ بها وتوعّدهُ بشديد العقاب إلمْ يسرْ على مقتضاها

(ثالثًا) يشعر الانسان طبعًا بضعفهِ وشقائهِ فيحاول التقرّب الى اللاهوت طلبًا لنجدتهِ وتسكينًا لغضبهِ. وهو الغرض من الفرائض والمراسيم الطقسيّة التي لا تخلو منها دينة في العمور فمنها ما هو ضربة لازب تُقيّد بهِ حرّيّة الجميع ومنها ما هو مطلق لارادة الكلّ فهم مخيّرون فيهِ يأتونهُ او يهملونهُ حسبما شاؤوا. ومنها ما هو مُشاع مباح الكلّ ومنها ما خُصّ بافراد دُعوا كهنةً او احبارًا او شيوخًا او غير ذلك. والقصد من هذا كلهِ استطاف العالم العلويّ على الارضيّ واحكام عرى الوصال بينهما وترتيب علاقات الطرفين

٢ حدّ الدين

واعلم انّ اتفاق الشعوب على هذه الاصول الثلاثة تتوقّف عليهِ نتيجتان خطيرتان يجدر بنا الاعراب عنهما: -

(النتيجة الاولى) اذا اردنا تأليف حدّ محمل للدين بنيناه على الاختبار فقلنا: هو مجموع اعتقادات وشواعر ورسوم وطقوس واضعها وموضوعها معًا سلطانٌ يعدُّه

---

١) راجع مقالة الاب دي كرانميزون اليسوعي (De Grandmaison) في كتاب تاريخ لاديان لجامعي الاب اودي اليسوعي ص٦ و٧ (HUDY: Christus, *Paris, Beauchesne, 1912*)

الانسان ساميا متعاليا ويعدّ ذاته تحت سيطرته مع انهُ يعتقد باستطاعته التقرُّب اليه والمداخلة معهُ . وان شئت قل بايجاز : الدين هو سير البشر بحضرة اللاهوت سواء عاشوا منفردين او ملتئمين في هيأتهم الاجتماعية (١)

ولدى المقابلة تتحقق انهُ لا فرق بين هذا الحدّ والذي اجمع عليهِ علماء الكنيسة اذ قالوا : الدين عبارة عن مجموع حقائق وفرائض تقوم على علاقات موجودة بين الله والانسان (١) . ولا بدع فانا وضعوا تحديدهم هذا استقراء لما حصلوا من الاختبار

٣ الدين طبع في البشر

واما (النتيجة الثانية) فهي ضرورة الدين وقد وضع فيها حضرة الاب لويس معلوف اليسوعي مقالةً في المشرق (١ : ١٦١) نحيل القارئ اليها (٢ وما كنا هنا لنعود الى هذا الموضوع لولا تبادر ما يؤيد ادلّة الكاتب الوما اليهِ نتيجةً بديهيّةً تستخلص من الحدث الذي تحققناه مع ايسة تاريخ الاديان ألا وهو شيوع الدين في كل زمان ومكان

والحق يقال ان ما شاع ودام وتعرّق في بني الانسان لا بدَّ ان يكون مبنيًّا على الطبيعة متأصلًا فيها . وما اسّستهُ الطبيعة لا يكون عبثًا بل هو ضروريّ جوهريّ والّا كذبت الطبيعة وتضعضعت اسس الخلق تائهين في عالم الوهم لا يدرون الى ما يركنون

تصدق الطبيعة لا تكذب اذ تحدثنا بحنان الامّ على ولدها وحنين الغريب الى وطنهِ . تصدق اذ تدفعنا الى التحفُّظ بالحياة والمدافعة عنها والتذرُّع باسبابها من اكل وشرب ورُقاد وحركة وعمل وراحة : فلِمَ تكون كاذبة تمرّه علينا اذ تحدو بنا الى الاعتقاد بالخالق والتعبُّد لهُ

فهي طبيعة الانسان بما ازدانت من العقل ترقى بهِ حثيثًا من البرهانات المنظورة

---

١) راجع الاب دي كراغازون في مقالتهِ المذكورة انفًا ص ٩ – وكتاب الدوق دي بروغلي في الدين والانتقاد ص ٣ – ٥٦ (ABBÉ DE BROGLIE : Religion et Critique, *Paris, V. Lecffre, 1906*)

٢) راجع المشرق (١ : ١٦١) وكتاب الاب فيلمرس اليسوعي في الدين الموحى G. WILMERS, S. J. : De Religione revelata, *Ratisbonæ, Pustet, 1907*)

الى بارئها غير المنظور (فيرقى اليه العقل ويتحقق كونهُ حيًّا عالمًا كاملًا يحقُّ لهُ الاكرام وربًّا ساميًا سنَّ ناموسًا يقضي العدلَ وصالحُ النفس ان يُطاع . وجوَّادًا يمنُّ على مستنجديهِ بالعون وطائعيهِ بالثواب . ودَيَّانًا عادلًا يقتصُّ من العصاة بشديد العذاب . فتنتهج في الانسان عوامل التديُّن من عبادةٍ لهُ تعالى وصلوة اليهِ ورضوخ لسلطانهِ ورجاء لعطائهِ ورهبة من غضبهِ ومحبَّة لجودتهِ وشغف بحسنهِ وجمالهِ

وهي هي الطبيعة قد خُصَّت بارادةٍ نبراسُها العقل تميل الى الخير وترغب فيهِ ولا ترتاح اليهِ الَّا ساميًا لا حدَّ لكمالهِ مصورًا في ذات الله الذي لم يغرس فينا حبَّ الخير الاعظم الَّا لانهُ هو غايتنا القصوى . فاذا لبثت الارادة على ما فُطرت عليهِ ولم تفسدها الاهواء السافلة قامت تميل بعواطفنا عن الخيرات الدنيئة التي لا تبلُّ لنا ريقًا ولا تسدُّ رمقًا . وتثير في القلب عوامل الشوق الى الخير الاعلى وتتذرَّع بالاهواء لتنهض بالانسان كلهِ فينافس اللاهوت عقلًا وفؤادًا . وادراكًا وشعورًا . وتأمُّلًا وصبابةً . ورجاء وخوفًا . ومحبة وشوقًا

وقصارى القول ان الدين طبعٌ في الانسان ولو لم يهبط عليه به وحيٌ من السماء لاستخرجهُ من معدن كيانه ولو ناقصًا عليلًا

٤ الدين الصحيح وضعيٌّ موحًى واحد لا يتعدَّد

على انهُ في واقع الحال ليس في العمود دين حريٌّ بالاعتبار بريءٌ من الخطأ الظاهر الصريح (كالاشراك فيه تعالى او الحلول) الَّا ما هو وضعيٌّ موحًى اتلهُ في زعم ذويهِ . فالموحدون كلهم يجزمون ان من لدُنهم عقائدهم او لدُنها زعماءهم وسلفاءهم انما هو الله . فاذا ما تحققتَ هذا استنتجتَ امرين :

(اولهما) ان الديانة الصحيحة هي في واقع الامر موحاة وضعيَّة . فقد قدَّمنا أنَّ ميل الانسان الطبيعي الى الدين لا يمكن ان يكون عبثًا ولا بدَّ لهُ من موضوع صحيح . والحال انهُ لا وجود لدين طبيعيٍّ صرفٍ يفي بالمقصود . فما بقي الَّا احدى الديانات الوضعيَّة لتشفي غليل الانسان وتروية عبادةً وتقى

---

١) راجع رسالة القديس بولس الى اهل رومية (١ : ١٨-٢٣) وسفر الحكمة (ف ١٣)

ولا غرو فانَّ الوحي الصحيح يفي الطبيعة حقَّها من التدين ويزيد على حاجتها. فانَّ الناطق بهِ هو الله واضع الطبيعة. وهو إله حكيم صادق عرف جبلتنا فما انزل عليها وحياً الَّا موافقاً لها وان فائقاً عليها. ولم يكن ما ارجاه تعالى لينقض ما اقامهُ على اسّ الطبيعة. فذاك مضاف ومضاف اليهِ ونسبة الواحد الى الآخر كنسبة الطعم الى المطعَّم. فكما ان الشجرة البرِّيَّة اذا ما أطعمتَها غصناً بستانيًّا رقَّيتها لم تُبطل لها طبعاً كذلك الوحي الالهي يُنير ويرفع الحِكَم الدينيَّة التي دلَّنا اليها نبراس العقل حتى يبلغ بنا شمس الحق الالهيَّة لا يضعضع للدين الحقيقي ركناً ولا ينقض اساساً

(الثاني) انَّهُ لمَّا كان تقدَّست اسماؤهُ الهاً حقًّا لا يَضلّ ولا يُضلّ وكان التناقض اصرح الحجج على الضلال والغرور فمن المحال ان يكون بين الديانات المدَّعية بالوحي الالهي غير واحدة صادقة صحيحة. فانها كلها بجميع ما تضمَّنتهُ وضَمِنتهُ لذويها من العقائد تنتمي الى الله عزّ وجلّ مُرشداً ومعلِّماً. هذا من باب. ومن آخر ترى بين تعاليم الديانات اختلافاً وتناقضاً وتضاداً من واحدة الى اخرى ما هو اشهر من نار على علم. ومن المُحال الظاهر ان يكون الله هادياً اليها جميعاً

فالديانة الصحيحة اذاً هي موحاةٌ مُنزَّلة وضعيَّة من وضع الله واحدةٌ لا تتعدَّد[1]

٥ وجوب الايمان

ولكن اين هي الديانة الصحيحة وكيف الوصول اليها ؟

لعمري انهُ سؤال من الخطور بمكان يهمّ الجميع ولا سيما من ارتاب في صحَّة معتقدهِ او اشتبه انَّ معتقد غيره ربَّما كان اصلح

ولا غرو فانَّ الوَحي الصحيح يستوجب الايمان. والايمان يقتضي التنقيب عن صحَّة الوحي

غنيّ عن البيان بعد ما قدَّمنا في وجوب الدين ان الله لا يُنزل الوحي عبثاً على بني الانسان. بل مرادهُ عزّ وجلّ ان يقيِّد الارادة والعقل بما صرَّح بهِ من المراسيم والعقائد التي اوحى بها. هذا ما تجزم بهِ الديانات كلها وبالاحرى الديانة الصحيحة وقد قدَّمنا انها جميعاً تحتم بوجوب التسليم بتعاليمها وهذا ايضاً ما يحكم بهِ فضلاً عن

---

[1] راجع الاخاء المتين (ص ١١٠-١١٧ و١٢١-١٢٨ و١٦٧-١٧١)

شريعة الرب المُنزلة ناموسهُ الطبيعي الذي بثهُ في افئدة عباده . فان كان جلَّ جلالهُ يقضي على الانسان ان يعظِّم كمالاته تعالى التي تشير اليها المخلوقات فكم بالاحرى يتطلَّب منا ان نكرم صفاته التي تتفضَّل واوقفنا عليها بذاته متكلماً واخصها صدقه وحكمته المعصومة . فاذا تكلَّم واوحى كان لسان حال وحيه مُرشداً الى التصديق والاذعان بل منذراً بوجوب الايمان . يقول عزَّ وجلَّ : كلَّمتكم فصدَّقوا . خاطبتكم فآمنوا . والَّا فلَم تغوني ما لعظمتي عليكم من حق التعظيم والاجلال . بل اهنتموني واستحققتم شديد عقابي

أفلا يكون استذلالاً منك واحتقاراً لشخص شهد لهُ الخاصّ والعام بالدربة والصدق وقد عرفتهُ انت مزداناً باحمد الصفات حاذقاً عالماً خبيراً محنَّكاً حسن السيرة والسريرة تزكي اعمالهُ اقوالهُ ان ترفض شهادتهُ او تكفّ اذعانك لها غير مصدّق ولا مكذّب كأنك لا تُعيرها بالًا ؟ فكيف لا يستهين بالحقّ سبحانهُ وتعالى من تردَّد في الايمان بقولهِ اذا ما حصحص لهُ ووضح ؟

يُصدّق العليل طبيبهُ اذا وصف داءهُ واشار عليهِ بدوائه . يصدّق النزيل صاحب الفندق فيتناول من طعامهِ غيرَ مُرتاب . يصدّق المؤرّخ والقاضي الشاهدَ العياني اذا كانت شهادتهُ مزكّاة . نصدّق كلَّ يوم وكل ساعة الكبيرَ والصغير القاصي والداني بل كل حياتنا قوامها على الايمان ببني جنسنا لا نستطيع ان نخطو خطوة لولا ثقتنا بهم . فكيف لا نؤمن بكلام الله وهو الشاهد العياني لكلّ امر لا يَضلّ ولا يُضلّ ؟

ومن ثمَّ يتَّضح لك ان الايمان ليس على ما يتوهَّمهُ البعض ويتحاملون بهِ علينا فعلَ قرَّة جاهلة عمياء لا تفقه معنى ما تؤمن بهِ وتطأطئ الرأس خاضعةً بلا داعٍ صوابي . فكل مؤمن يفهم ما يقول اذا تلا قانون الايمان — وإنَّ يُدرك ما للاسرار المتضمّنة فيهِ من التعليل والكيفيَّة . اقول مثلاً : الله واحدٌ في طبيعتهِ ثلاثة في اقانيمهِ . فأفهم ما معنى هذه الكلمة « الله » مع عدم استيعابي لِكُنه الله كلهِ . وافهم ايضاً ما المراد بالطبيعة والاقانيم وإنَّ اعلَم كيف تقوم الثلاثة في طبيعة واحدة

كذلك لا أصرّح بايماني عن سبب لا اعتله . فاني اومن بما اومن لأنَّ الله الذي لا يغش ولا يُغشّ اوحاه اليَّ

فلو فقه هذا حضرة الكاتب اميل زيدان او راجع ولو التعليم المسيحي الصغير الذي في ايدي اصغر طلّاب المدارس المسيحيّة لما كتب في الهلال (تشرين الاول ١٩١٣ : ١٩) : « الاعتقاد هو التسليم بفكر او رأي او مذهب بجملهِ وعلى علّاتهِ بلا دخل للقوى المُفكِّرة — بل بالرغم عنها ». ولا يدهشنّك تعاميهِ هذا عن الحقيقة فانهُ سبق وقال (في الصفحة نفسها) : « قد بحث المُفكِّرون طويلًا عن المعرفة وطرقها ولهم فيها مذاهب وآراء شتى . ولكنهم اهملوا البحث في الاعتقاد واسبابهِ وقوّتهِ فالكتب في هذا الموضوع قليلة جدًّا » وما كان اولى بهِ ان يقول : « الكتب التي عثرتُ عليها انا او رضيتُ بتصفّحها . . . » فلو رام هو واتّسع لنا المجال اذكرنا لهُ في هذا الموضوع مئات من تآليف الآباء والملافنة والعلماء . فليراجع مثلًا المجلّد الاوّل من خطب الاب مونسابره الدومنيكاني (١ او دائرة معارف اللاهوت الكاثوليكي لجامعيها « فكّان ومانجنو » عند لفظة Croyance لشارح مادّتها الاب هاران اليسوعي (٢ يرَ هناك من البحث ما يشفي غليلهُ ويسدّ خلاهُ ويهتدِ الى مؤلفات جليلة في موضوع الايمان والاعتقاد هي اكثر من ان تكفي لطالعتها حياة الانسان . ولعلّهُ هو غالى في « التسليم بفكر ورأي ومذهب » مُرشدهِ الدكتور جوستاف لوبون المعروف بتحامله على الدين وقد قال (ص ١٨ في الحاشية) انّهُ اخذ الجزء الاكبر من مقالتهِ عن كتابه في الآراء والعقائد (Les Opinions et les Croyances) . فجاءت معرفتهُ للاعتقاد طبق تحديدهِ لهُ . فهنيئًا لهُ

نعم يمكن الانسان ان يوصد في وجه الله الواحي باب عقلهِ فلا يعيره اذنًا صاغية او اذا اعارهُ يستطيع ان يُمسك عن التصديق والايمان . ومن اجل هذا فللارادة الحرّة ان تحمل اوّلًا العقل على التروّي في الكلام المُنزّل ليدرك معناه وفي السبب الداعي الى الانقياد اليهِ والاعتقاد بهِ . واذا تبيّن واتضح لها ان تأمر العقل بالايمان او ان تميل بهِ عنهُ لكنّ فعل الايمان عينهُ ليس للارادة بل للعقل فهو يقوم

(١ M.L. Monsabré O. P.: Introduction au Dogme Catholique, t. 1er, 2e éd., Paris, 1882, pp. 93-95

(٢ Vacant-Mangenot, Dictionnaire de Théologie Catholique, Tome III, Paris, Letouzey, col. 2364-2396

به وحده و إنّ عن امره و مشورته . هو وحده يدرك مخطرق الوحي والسبب الداعي الى الاعتقاد به . فيقول المؤمن : ربي والهي انني أومن ايماناً ثبتاً بكل ما اوحيتهُ لانك انت الحقّ ولا تقول الّا صدقاً

٦ وجوب التنقيب عن صحة الوحي

ومن ثمّ يتضح لك ايضاً وجوب التنقيب عن صحة الوحي . قلنا ان الداعي الى الايمان هو كلام الله . ولكن ترى هل في واقع الحال جرى الله تعالى حديث مع البشر ؟ هل خاطبهم كاشفاً لهم عمّا كنتهُ ذاتهُ من الكمالات وما علمهُ من الاسرار وما قضت به ارادتهُ من الاحكام ؟ هذا سؤال لا بدّ للمرء ان يجيب عليه اكيداً قبل ان يتخطّى الى الايمان والّا كان انقيادهُ اليه عن عمى لا عن صواب وصدق من رشقهُ بسهام اللوم قائلاً : انهُ انما آمن عن جهل لا عن فطنة صادقة

قلتُ « الفطنة الصادقة » لا المكابرة فانّ مقتضيات الفطنة من التأكيد في هذا الباب تتراوح درجاتٍ مع تفاوت عقول العباد . فكلٌ حسبما قسم لهُ الله ذهناً وادراكاً . وما يتطلّبهُ الكهل العالم للحصول على اليقين بامر الوحي لا يتطلّبهُ الأمي او الولد الصغير

ولا تعجبنّ من هذا فانّ الفطنة لا تستوجب الّا ما ارادتهُ ومكّنت منهُ عناية الله . فانّهُ سبحانهُ تعالى يرى عباده ورامهم متفاوتين صغاراً وكباراً علماء وسذّجاً واليهم جميعاً هو ذاتهُ وجّه كلامهُ المنزل . فلا يرضى الله ولا تتطلّب اذاً فضيلة الفطنة ان ينهجوا كلهم سبيلاً واحداً توصّلاً الى معرفة الحقائق الدينية

ولذلك قد تعدّدت الادلّة والبيّنات وتوفّرت الشواهد الصريحة للديانة الصحيحة فكلٌ يتناول منها ما يناسبه

ومما يجعل التنقيب ضرورياً لا مندوحة عنهُ انّ الله الذي يتطلّب الايمان من الجميع لم يخاطب كُلًّا منّا توًّا دون واسطة . لكنّ هناك قوماً من الناس صرّحوا انهم اولياء اصطفاهم الحقّ سبحانهُ وتعالى فلقّنهم تعاليمهُ واتوا منذرين بها عن امره وحاملين الينا وحيهُ . فسبيلنا ان نبحث عن صحّة دعوتهم او ادعائهم فان ثبتت آمنّا بكلام الله المنقول على ألسنتهم والّا اعرضنا عنهم غير حافلين بمقالهم

فليس كلٌ من ادّعى النبوّة والولاية نبيًّا او وليًّا . فنهم والعقل المستقيم شاهدٌ

عليهم من عَلَم ناقضاً ومنقرضاً ناسخاً ومنسوخاً. وعلى هذا اصحاب الديانات الهندية مثلاً التي تذهب مذهب الحلول والتقمُّص. ومنهم والتاريخ شاهدٌ عليهم مَن غلبت عليهم الادواء العصبيَّة فظنُّوا وحياً من عند الله ما تراءى لهم من التخيلات أبان تشوّش قواهم العقليَّة تحت وطأة النوبات. فلم يخلُ جيلٌ ألّا قام فيه نبيٌّ او نبيَّةٌ على هذه الشاكلة. ومنهم والتاريخ شاهدٌ عليهم ايضاً من لم يأتوا بحجَّةٍ على نبوتهم غير الضغط والقوة الجبريَّة يتوعدون بها موعوظيهم وينتكون بمن لا يدين بدينهم فمن سلموا من ضلالهم قلَّما سلموا من جورهم وعتوهم. ولك على ذلك امثال في تعدّيات المبتدعين الاريوسيّين على الكاثوليك في الجيل الرابع واضطهادات الالبيجيين (Albigeois) في عهد القديس عبد الاحد وغيرها كثير

٧ الصلوة أمُّ الايمان

فلا بدَّ اذاً للعقل ان يتبصَّر في الوحي واطوار حامليه الى العباد وكيفيَّة نقله قبل ان يرضخ مسلّماً معتقداً

ولسنا نعني بقولنا هذا ان الانسان بقواه الطبيعيَّة وحدها غنيٌّ عن نعمة الله ومساعدته ليسلك السبيل الى الايمان وتستقيم قدمهُ فيه. قال لاكُردار (١ : ٥ الايمان ليس فقط فعل العقل ولكن فعل الارادة ايضاً (وقد مرَّ بك انها هي تأمر العقل به). والارادة هي قوة الحب في الانسان وكما انهُ يتدفَّق من العقل نهران نهر التعقُّل ونهر الايمان كذلك تتفجَّر الارادة ينبوعَين من المياه مياه الحب الطبيعي ومياه الحب الالهي. فذاك يلصق قلبنا بالعالم المخلوق وهذا يعلو بنا الى غير المخلوق. ذاك يبعدنا عن الايمان وهذا يدفعنا اليه» ولا يخفى ما تلاقي الارادة من العقبات في سبيل التملُّص من حبّ العالم والتعلّق بالله فتحتاج من اجل ذلك الى معونة خصوصيَّة من لدن الربّ

كذلك لا يخفى ان الايمان اول وسائط الخلاص. والخلاص هو في بلوغ السعادة الابديَّة وهذه قد جعلها الله فائقةً على الطبيعة تقوم بمعاينته تعالى وجهاً لوجه دون حاجز او فاصل. ولما كان لا بدَّ من التناسب بين الوسطة والغاية اقتضى ان يكون الايمان ايضاً فائقاً على الطبيعة لا يستطيع الانسان اليه ولا الى التأهب لهُ بمجرَّد ما

(١ (B. P. Lacordaire, Conférences de Notre-Dame, Paris, 1844. I, 263)

فُطر عليه من القوى الغريزيّة بل لا بُدّ له من عضد علويّ يفوق على طبيعته وينالهُ المرء بالصلوة. قال لاكردار (١ :

« لمّا قتل اخيلس هكتور وسحب جثّتهُ سبعاً حول مدينة طروادة المحاصرة اتاه في المساء عند مدخل خبائهِ شيخ اعزل: فاذا هو پريام (Priam) جاء يسأل ذاك الظافر الفاقد الرحمة جثمان ابنهِ. فلثم يده قائلاً: تحقّق ما ألمّ بي من المصاب وقد لثمتُ يد قاتل ولدي. فبكى اخيلس وردّ جثة عدوّه هكتور. ترى اي قوة حطّت قلب هذا العاتي. اي سحر فتنهُ؟ انما هو التوسّل سطا عليه وسخّره. فلو لم تلاقِ القوّة في الدنيا حاجزاً يوقفها عند الحدّ او لم يقم في وجهها الّا قوة تحاكيها لآل الامر بالبائسين والتعساء الى الهلاك. ولذا كان لله ان يخوّل البؤس قدرةً تُسقط السيف من اليمين وتطفئ سعير الغضب وتسوّي ما بين القوة والضعف من التفاوت. ألا وهي قدرة التوسّل والاستغاثة. هي سلطانة العالم اكتست ثوب الضعة والاستكانة وطأطأت الرأس رافعةً كفّ الضراعة فبسطت حمايتها على المعمور بقوّة الابتهال. تراها لا تفتأ تغدو وتروح من قلب الضعيف الى قلب المقتدر. وكلّما دنى مصدرُ انينها وسما العرش المتصاعد اليهِ توطّدت سلطتها. فلو استطاعت الحشرة تضرّعاً لأثارت في قلبك من الشفقة اشدّها وما سحقتها برجلك. ولمّا كان الله ليس اسمى منهُ كانت الصلوة اليهِ ايضاً ليس اظفر منها. الصلوة سادتي تُجدّد عرى الوصال بين الله والانسان هي تستعطف علينا صنيعه تعالى هي تغلبهُ غيرَ باخسةٍ بحريته. فهي اذاً امّ الايمان

« ومن معترض يقول: أوليس من الواجب ان يسبق الايمانُ الصلوة وان كان على قولك لا بدّ من الصلوة له أفليس ثمة دورٌ. إي سادتي انهُ لدور. واخالني سبقتُ وقلتُ لكم ان العالم بملئهِ يتقلّب في الادوار. ولكن هاكم كيف يتسلّل الله من دورنا هذا. تقتضي الصلوةُ ولا مشاحّة ان يسبقها الايمان في اوّل عهدهِ في بدء نشوئهِ. أوَ تدرون ما هو الايمان الناشئ؟ انما هو الارتياب. الارتياب هو مبدأ الايمان كما الخوف هو مبدأ الحبّ. ولست اعني بقولي هذا السفسطائية المكابرة المعاندة التي يجمع تباعها بين الريب والجزم بوجوبهِ بلا تردّد وانما مرادي ذاك الارتياب الذي ربّما كان دأب الكثيرين من سامعيّ. فهو الارتياب الصادق الذي يحملهم على ان يحدّثوا النفس

١) في المجلّد ذاتهُ (ص ٦٧ وما يليها)

قائلين: فعلى بعد هذا كلّه انا الذليل الخشيل من صُنع عنايةٍ تدبّرني وتسهر عليَّ! .. عساني استطيع معرفة هذا الاله وحبّهُ! لعلَّ ... وعسى ..! ثقةً سادتي الارتياب الذي هو الايمان في اول نشأته وانكم لتلاقون خرط القتاد دون قلع هذا الايمان الناشئ من افئدتكم لانهُ تعالى قيّدها بهِ برباط من الماس .

" فاجميعنا اذًا ايها السادة تتيسّر الصلوة لانا جميعاً اما مؤمنون واما مرتابون. وكلّ منا حشرةٌ بنت يومها تائهة في ظل ذرّة من العشب. تُجهد النفس في احتجاجات فارغة متسائلاً عن مصدرهِ ومآلهِ. أفلا نستطيع الهتاف قائلين: يا ذا الذي يرانى ايًّا كنتَ تعطّف عليَّ وانتشلني من مخالب الريب والشقاء.. فمن يعجز عن صلوة كهذه؟ وأنّى العذر لنا إلمَّ نسعَ في بناء الايمان على صخرة الصلوة؟" اه

٨ ادلّة البحث العقليّة

على انهُ قيل: كن مع الله ترَ الله معك. فانهُ جاءت حكمتهُ وإن من تهتانًا بالعون الفائق على الطبيعة ابى ان نستغني بهِ وحدهُ عن التذرّع بالوسائط الطبيعيّة. وان هي في مقامنا هذا الّا علامات وشارات يتبصّر العقل فيها منارًا بالنورَين العلوي والغريزيّ معاً فيستطيع ان يميّز صحيح الوحي من فاسدهِ. ولذا سُميت هذه العلامات ميزات او أقيسة (criteria) (١)

وهي على نوعين داخليّة وخارجيّة. فالاولى تؤخذ من نفس التعليم المقال عنهُ موحًى فتزينا ما فيهِ من المطابقة للعقل المستقيم او عدمها وما لهُ من التأثير الحسن او الفاسد في حياتنا الادبيّة. والخارجيّة هي الآيات من معجزات ونبوات التي تشهد بعصمة حامل الوحي. واليك الآن في كلّ منها كلاماً موجزًا ريثما يتيسّر لنا في غير هذه العجالة ان نفيها جميعاً حقها من البحث المفصّل

أ العلامات الداخلية

هذه العلامات تُقسم قسمين فمنها سلبيّة ومنها ايجابية

(فالسلبيّة) انما تُفصح عن امكان الهية الوحي الذي انت في صدده او محالهِ.

---

١) راجع مؤلّف الاب فيلمس المذكور آنفًا (ص ١٠٦-١٦٨):
AD. TANQUERAY: Synopsis Theologiæ Fundamentalis, ed. 13ª, 1910, pp. 132-137

فان كان عارياً منها استنتجتَ فسادهُ واعرضت عنهُ والّا فلم تبلغ بعدُ بالبحث الّا حدَّ الحدس والتخمين. ترى ممكناً كون الله اوحى ما تتوّى فيه ولكن هل وحى في واقع الأمر ؟ هذا ما لا يكشف قناعهُ الّا باقي العلامات

ذلك واخصّ العلامات الباقية ثلاث: (اولها) العصمة من الضلال ان نظرياً وان ادبياً. وهي كون موضوع الوحي خالياً من كل ما يخالف صريحاً الحقائق الثابتة الراهنة لدى العقل والعلم. فمن المحال ان ينزل الحقّ سبحانهُ وتعالى وحياً بشيءٍ يضادّ هذه القضايا ومن ثمَّ كل ديانة تجزم بتعدّد الالهة او بميتوتة النفس او بعدم حرّية الانسان هي كاذبة ليست من وضع الله

على ان هذا لا ينافي كون الوحي وان صادقاً الهياً يحوي ما يفوق على العقل دون ان يناقضهُ. بل ما العجب اذا ما كان في الله الذي لا تُحصى صفاتهُ ولا حدّ لكمالهِ خواصُّ غامضة واسرارٌ خفيّة لا يدركها العقل بذاتهِ. وسيأتيك الحديث ضافياً في هذا الموضوع في مقالةٍ نفردها لهُ ان شاء الله

(وثانيها) خلوّ موضوع الوحي من التناقض. فمن البديهيّ ان الله لا يستطيع ان يعلّمنا ناقضاً ومنقوضاً او ان ينسخ وينفي اليوم ما صرّح بهِ امس. هذا في الحقائق النظريّة التي (لمّا كان عمادها ذوات الاشياء) لا تتغير على الاطلاق. واما العمليّة اي المراسيم والشرائع الوضعيّة فيمكن الله ابدالها او نقضها ايضاً حسبما تقتضي الظروف وعنايتهُ الالهيّة. ما لم تكن آمرةً بما يستوجبهُ الناموس الطبيعي الذي هو مبنيٌّ على ذوات الكائنات. مثال ذلك ان الحق سبحانهُ يحسن ابدال تقديس الاحد من تقديس السبت ويحتّم بذبيحةٍ اكمل واقدس بدلاً من اخرى ادنى منها. واما ان يأمر مثلاً بالتجديف على اسمهِ القدوس سراء نهى عنهُ من قبل او لا فتعالى ربُّنا القدوس عمّا يمسّ بكمال قدسهِ

(وثالثها) ان يكون حامل الكلام المنزل بريئاً ولو في عرضهِ اياه للبشر من وصمة المكر والخداع. فاذا أبان لك التاريخ ان صاحب ديانةٍ انما كان متكلّفاً مخاتلاً يُداجي تبّاعه ويموّه عليهم بان يأتيهم اعمالاً تدهشهم لم يتوصّل اليها الّا حيلةً متذرعاً بوسائط خفيّة فاعرضْ عنهُ لانَّ الله قدوس يبغض الكذب لا ينتصر لهُ شاهداً

قلنا ان هذه العلامات لا تتجاوز بالتروّي حدّ الحدس والتخمين. هذا ان اعتُبرت في حدّ ذاتها. واما اذا حوَت ديانةٌ ما من العقائد والمراسيم ما لا يقلّ عدده وازدانت في كل منها بهذه العلامات السلبيَّة جميعاً نشأت عن هذا علامة جديدة ايجابيَّة تقوم بالعقل ان لم يكن الى اوج التأكيد واليقين فاقلّهُ الى درجة الرجحان والاغلبية اذ لا يستطيع الانسان بمجرّد قواه العقليَّة الغريزيّة دون عون ربّاني خصوصيّ ان يفقه الحقائق الدينيَّة الضروريّة كلها مجموعةً مرتبة غير مشوبةٍ بالغرور والضلال (على ما سيتبيّن لك في كلامنا عن ضرورة الوحي)

واماً (العلامات الداخلية الايجابيَّة) فهي صفات لنفس محتويات الوحي تقوم شاهدةً لصحّته. من ذلك اذا الفيتَ تعاليمهُ توافق العقل مع انها تعلو بهِ وبالارادة الى المعارف والفضائل اسماها واشرفها. لا تهمل شيئاً من احتياجاتنا الادبية بل تنيلنا كل ما نهوى من الغايات المجيدة العليا

ولك في هذا الباب حجج اسطع ودلائل انطق اذا ما قرنتَ البحث بالمقابلة فان رأيت ديانةً فاقت على غيرها وسمت بما احتوتهُ من مدركات عالية ومطالب سامية وعوامل ادبيَّة تحمل الانسان كلهُ ادراكاً وشعوراً وعاطفةً وحبّاً وتحلّق بهِ الى ما يسمو بهِ طبعاً ويشرف متزعاً وهي مع ذلك لا تنقض للعقل الصادق رأياً ثابتاً صريحاً ولا للطبيعة المستقيمة شرعاً اكيداً بل تفي بكل مقتضيات الانسان الادبية من غايةٍ سامية تستفزّ الارادة واسعافٍ علويّ ينشطها. فطبْ نفساً وقرّ عيناً فانك فزت بضالّتك المنشودة (١

٢ واماً (العلامات الخارجية) فقوامها الادلّة الناشئة عن الشواهد والآيات الالهيَّة التي يصنعها بعون الله ناقل وحيه ورسولهُ. ومنهـا ما هو سلبيّ مرجعهُ الى صحّة عقل الوليّ وسلامة طويته مما تتحقّقُ منهُ انَّ وَقْع كلام الله عليهِ ممكنٌ حريٌّ بالاعتبار. ومنها ما هو ايجابي بهِ تنجلي حقيقة وجود الوحي وتتيقّن. وهي المعجزات

---

١) راجع كتاب الخوري دي بروغلي في اركان الايمان المسيحي العقلية (Abbé de Broglie: Les Fondements intellectuels de la Foi Chrétienne, 1905) وفيهِ اتّبع المؤلف الطريقة المذكورة

والنبوات آيات باهرة لا يأتيها الا الله او من اخذ بيدهم. فمن المحال اذن ان ترد شاهدةً على الضلال والكذب

تلك هي علامات الوحي الصحيح اجمالاً. وقد عوّلنا بحول الله على استطلاعها في ابحاثنا التالية. هدانا الله الى ما فيه معرفتهُ ومحبّته سبحانهُ وتعالى (لهُ تابع)

ميمر

في عيد ختانة الرب

للقديس كيرلّس رئيس اساقفة المدينة المقدّسة اورشليم

نشرهُ الاب لويس شيخو اليسوعي

توطئة

انّ كتابات القديس كيرلّس الاورشليمي تُعتبر عموماً كاجلّ الآثار النصرانيّة واخطرها شأناً. ولاغرو فان هذا الرجل العظيم كان احد الاثار التي بها استضاء العالم النصراني في القرن الرابع بعد انتصار قسطنطين وظفر الكنيسة باعدائها. فكان مع القديس اثناسيوس الاسكندري ركناً متيناً للايمان المستقيم فردَّ مثلهُ غارات آريوس واشياعهِ وأذل مثلهُ ايضاً ان يصير هدفاً لسهامهم فنفوه بدسائسهم مراراً من كرسيهِ لكنَّ اضطهاداتهم لم ترددهُ الّا نشاطاً في الدفاع عن كنيسة الله ومات اخيراً بين ابناء رعيتهِ بسلام سنة ٣٨٩ بعد ان دبّر الكرسي الاورشليمي بكل حكمة وورع مدّة ٣٥ سنة. وكان مولدهُ سنة ٣١٥

وقد خلّف القديس كيرلّس آثاراً جليلة تُعدّ من انفس المآثر الدينيّة اخصّها ارشاداتهُ العقائدية (Catéchèses) التي جمع فيها باوضح بيان واقصح لسان كلّ تعاليم الكنيسة الموروثة من الرسل وهذه الارشادات تشهد الى يومنا بصحّة الايمان الكاثوليكي ومعتقداتهِ التي كانت في اواسط القرن الرابع كما هي اليوم دون تبديل ولا تزييف

وقد سرّنا انّا وجدنا في كتابين من مخطوطات مكتبتنا الشرقيّة اثراً مجهولاً يُنسب الى هذا المعلّم العظيم ألا وهو ميمرٌ اي خطاب قالهُ في عيد ختانة الرب احببنا ان ننشره في بدء هذا العام الجديد الذي يُفتتح بعيد الختانة. والكتابان اللذان دوّن فيهما الميمر المذكور قد وصفناهما سابقاً في المشرق (٨: ٤٣٤ و ٤٧١) وهما هناك موسومان بالعددين ٥٩ (ص ١٥٨ — ١٦٨)